المشرق

مجلّة ثقافيّة جامعة
تصدر مرّتين في السنة
عن «دار المشرق» ـ بيروت

المدير المسؤول: الأب كميل حشيمه اليسوعي
رئيس التحرير: الأب سليم دكّاش اليسوعي

هيئة المستشارين: المطران أنطوان أوردو ـ أ. لويس پوزيه ـ د. جورج جبّور ـ د. جاد حاتم ـ أ. عزيز الحلّاق ـ أ. صبحي حموي ـ أ. سمير خليل ـ أ. جون دنوهيو ـ د. أهيف ستّو ـ أ. فاضل سيداروس ـ د. رفيق العجم ـ د. بطرس لبكي.

الإدارة والتحرير

دار المشرق،
ص.ب. ١٦٦٧٧٨
بيروت، لبنان
الهاتف: ٢٠٢٤٢٣ و٣٢٦١١٠
التلكس: 42733 IMPACT LE

Direction et Rédaction

Dar el-Machreq,
B.P. 166778
Beyrouth, LIBAN
Téléph: 202423, 326110
Télex: 42733 IMPACT LE

محتويات المجلد

«بهاء الحقيقة». الرسالة البابويّة وتأسيس الأخلاقيّة ثانيةً،
بقلم الأب سليم دكّاش اليسوعيّ ٢٨٥
الناحية الكتابيّة وأثرها في الناحية الأخلاقيّة. دراسة نقديّة حول الرسالة «رونق الحقيقة»،
بقلم الأب جورج خوّام البولسيّ ٢٩١
المسألة الأخلاقيّة بين الحرّيّة والشريعة في منظور الرسالة «بهاء الحقيقة»،
بقلم الأب عزيز الحلّاق اليسوعيّ ٣٠٣
ردّات الفعل على الرسالة «بهاء الحقيقة»،
بقلم الأب كميل حشيمه اليسوعيّ ٣٢٥
فؤاد أفرام البستانيّ (١٩٠٤-١٩٩٤) ٣٣٣
في اللغة العربيّة وشواهدها،
بقلم الأستاذ أنطوان بشاره فيقانو ٣٣٥
المبادئ النظريّة العامّة في الكلمات الدخيلة في اللغة،
بقلم الدكتور ربيع مكّي ٣٦٥
قراءة في أعمال الدكتور عبد الرحمٰن منيف الروائيّة ـ ٢،
بقلم الدكتورة مؤمنة بشير العوف ٣٨٩
مخطوط «مجموع لطيف» للبطريرك مكاريوس الثالث زعيم (١٦٤٧-١٦٧٢)،
بقلم الأب ميخائيل أيرص، قب ٤٢١

رمز السمكة عند المسيحيّين،
بقلم الأب سامي حلاّق اليسوعيّ ٤٤٩
المجتمع المصريّ من خلال «قاموس العادات والتقاليد
والتعابير المصريّة» لأحمد أمين،
بقلم الدكتور يوسف أبو نجم ٤٦٩
كتاب «الأقباط والقوميّة العربيّة» لمؤلّفه أبي سيف يوسف،
بقلم الأب وِلْيَم سيدهم اليسوعيّ ٥٠١

مراجعة الكتب:

Louise-Marie Chidiac et alii: *La génération de la relève. 3. La pédagogie éthique* (أنطوان نصري مسرّة)؛ A. N. Méssara *Théorie générale du système politique libanais* (أ. كميل حشيمه)؛ Boutros Labaki et Khalil Abou Rjeili: *Bilan des guerres du Liban 1975-1990* (أ. سليم دكّاش)؛ لبنان في تاريخه وتراثه، بإشراف عادل إسماعيل (ك. حشيمه)؛ د. جيرار جهامي: الإشكاليّة اللغويّة في الفلسفة العربيّة (د. م.)؛ د. بيار خبّاز: محمود تيمور وعالم الرواية في مصر (م. د.)؛ الأب جورج رحمه: كليمنضوس الإسكندريّ (أ. سمير خليل سمير)؛ الخوري بولس الفغالي: تعرّف إلى العهد الجديد مع شهود عديدين (أ. صبحي حموي)؛ الكردينال جوزيف راتسنجر: مدخل إلى الإيمان المسيحيّ (ك. ح.)؛ الأب صبحي حموي: معجم الإيمان المسيحيّ (أ. ك. ح.)؛ كتب أُهديت إلى المجلّة ٥٣٥

«بهاء الحقيقة»

الرسالة البابويّة وتأسيس الأخلاق ثانيةً

للأب سليم دكّاش اليسوعيّ*

إنّ إذاعة رسالة البابا يوحنّا بولس الثاني، «بهاء الحقيقة» حول القضيّة الأخلاقيّة وموقف الدين منها، في الخامس من شهر تشرين الأوّل ١٩٩٣، لم تكن وليدة المصادفة ولم تكن صوتًا وحيدًا يعالج موضوعًا سقط وتهاوى مع الزمن. فموضوع الرسالة هو من المواضيع الأساسيّة، التي تهمّ المجتمعات شرقًا وغربًا، وهو موضوع مرتبط بالأزمة الحاليّة التي تسيطر على إنسان اليوم. وعندما دعت أُسرةُ مجلّة «المشرق» إلى التفكير في رسالة البابا «بهاء الحقيقة»[1]، أردنا أن نساهم فكريًّا في معالجة موضوع أهمّيّة الفكر الخُلُقي في حياة الفرد والجماعة، وفي الموازنة بين الحقيقة الثابتة والحرّيّة الفرديّة أكانت شكليّة أم حقيقيّة، وفي تقدير المقاييس والمعايير والحقوق الإنسانيّة التي لا بدّ من وضعها أو استنباطها لتنمو الحياة وتتمّ المحافظة على الحياة. في الزمن الماضي القريب طُرِح السؤال، «ماذا عليَّ أن أفعل؟» من الوجهة الفلسفيّة، وهو ما زال يُطرح اليوم في عصر الحداثة،

(*) رئيس تحرير مجلّة المشرق.

(١) عُقِدت في هذا الصدد ندوة بمعهد الدراسات الإسلاميّة المسيحيّة في جامعة القدّيس يوسف صباح السبت ١٥ شباط ١٩٩٤، وشارك فيها الآباء جورج خوّام (من الجمعيّة البولسيّة)، وجوزف يرحجر، سليم دكّاش، عزيز الحلّاق، جان أوكلن، فرانك راسبرغر، كميل حشيمه (من الرهبانيّة اليسوعيّة) والدكتور جاد حاتم. وتنشر تباعاً بعض المحاضرات التي أُلقيت في أثناء الندوة.

أينما وُجد هذا العصر. وعندما نطرح موضوع ماهيّة وجوب الفعل، لا بدّ لنا أن نتناول في الوقت عينه موضوع أساس القرار الخُلُقي. فأين هو مصدر ذلك القرار؟ هل هي الشريعة؟ هل هو الوازع الفرديّ؟ هل هو العقل أم الضمير؟

والواقع أنّ صدور رسالة البابا أتى في زمنٍ ينشط فيه الفكر الغربيّ المعاصر اليوم في الكتابة والتفكير في موضوع الأخلاق من الباب الواسع. فبعد أرسطو وإيمانويل كانط وسبينوزا وهيغل وغيرهم، ينشط الفكر الغربيّ مع ليفيناس وكونش وفايل وفالاديه[٢] وغيرهم في الكتابة حول مختلف أوجه موضوع الأخلاق حتّى إنّه أصبح قضيّة القضايا. فأمام ما تقوله العلوم الإنسانيّة وإزاء القضايا المتعدّدة التي تتناول جوهر الإنسان ومصيره، لا بل مصير مجتمعات بأسرها، وحيال سقوط النظام الإيديولوجيّ الشيوعيّ، وعند مواضيع تتناولها وسائل الإعلام بشيء من الإثارة كاستعارة البطن الحامل والمعالجات التحليليّة الوراثيّة واستمراريّة الحياة بشكل اصطناعيّ وموضوع حقوق الإنسان وواجباته، يتحرّك الفكر الفلسفيّ الأخلاقيّ في اتّجاه إعادة النظر بالخطاب الأخلاقيّ وفي اتّجاه تطوير خطاب يتلاءم مع حاجات الزمن الحاضر.

ويتردّد تعبير «العودة إلى النظام الأخلاقيّ» في الخطاب الفلسفيّ الحاليّ، وهو يرتبط أكثر ما يرتبط بفلسفة كانط الأخلاقيّة المبنيّة على قوّة التمييز والإدراك وكذلك، وبصورة هامشيّة أحيانًا، بفلسفة هيغل الأخلاقيّة التي تشدّد على القرار الإراديّ. وإذا ما أردنا أن نختصر الحالات التي تحاول فيها الفلسفة الأخلاقيّة أو الفكر الأخلاقيّ أن تضع بعض المقاييس لضبطها وتقدير المبادئ، التي تساعد في إدراك الأفضل، نستطيع أن نتبيّن التالي: الظروف أو الحالات التاريخيّة وقاعدتها حقوق الإنسان، الحالات

(٢) لكلّ من الفلاسفة الكبار كتابه الذي يتضمّن رؤيته في الأخلاق: من كتاب الأخلاق لأرسطو إلى قواعد للحكم الخلقيّ لكانط ومبادئ فلسفة الحقّ لهيغل والمؤلّفات الحديثة، تتعدّد المحاولات والتصوّرات نظرًا إلى ما لهذه القضيّة من أهمّيّة في حياة البشريّة.

التقنيّة العلميّة وقاعدتها القواعد الأخلاقيّة بما يخصّ المحافظة على الحياة، الحالات الاجتماعيّة وقاعدتها قانون الاجتماع...

واتجّاه الفكر الأخلاقيّ هو أنّ النُظُم الأخلاقيّة الجماعيّة الخاصّة بشعب هي نظم نسبيّة، والنظم الأخلاقيّة المهنيّة وبعض النظم الأخرى التي أثبتت أنّها فنّ السعادة والإسعاد، هذه النظم كلّها لا تبرير كونيّ شامل لها. ولا شكّ أنّ الأخلاقيّة الأساسيّة أو النظام الأخلاقيّ الأساسيّ الذي سعى الفكر المعاصر إلى تطويره عقلانيًّا هو نظام حقوق الإنسان التي لا تتأسّس على عقيدة أو اعتقاد، على دين أو إيديولوجيّة، بل على المطلق الذي هو علاقة الإنسان بالإنسان من ضمن الحوار. ماذا يعني، في أفكار خمسة، «إعادة تأسيس الفكر الأخلاقيّ» أو «عودة الأخلاق»، وهو تأسيس يراه إنسان الحداثة الحرّ المستقلّ.

أ - تأسيس الفكر الأخلاقيّ ثانية يعني أنّه للإنسان الحقّ المطلق في أن يحكم وأن يميّز التمييز العقلانيّ الأخلاقيّ، وهذا يعني أنّ هذا الحكم ضروريّ وأنّ الأحكام الأخلاقيّة هي ضروريّة إذ إنّها تنشد الخير، أي أنّ الضمير له الحقّ بأن يقرّر بهذا الاتجاه أو بذلك. تأسيس الأخلاق هو أنّ للإنسان القدرة على أن يحكم على الأعمال الإنسانيّة مهما كان نوعها، وقاعدته هي الفكر الأخلاقيّ نفسه.

ب - تأسيس الفكر الأخلاقيّ هو ضروريّ اليوم، في مفهوم الفكر المحدّث، لأنّ القاعدة المشتركة سقطت ولأنّ الضمير العامّ المعاصر هو في أزمة ولأنّ الإجماع حول العديد من الأمور لم يعد إجماعًا، بل إنّ الفوضى انتشرت وتوسّعت دائرتها. فهناك انقلاب في المقاييس والمعايير والقيم! إذ إنّ ما كان يُعدّ من باب الرفض والعصيان، أصبح اليوم من مقوّمات الحرّيّة والاستقلاليّة والذاتيّة: فالكثير من المسلّمات أصبحت موضوع بحث، ولا بدّ من وضع التصوّرات الخُلقيّة الملكيّة في مجال العلاقات ضمن العائلة والعلاقات بين الجنسين وفي إطار الحياة المهنيّة والاقتصاديّة والمدنيّة العامّة. والخلقيّة على الصعيد الفرديّ، هي موضع

السؤال، حيث إنّ العديد من المفاهيم هي بحاجة إلى إعادة تحديد: الحكم الأخلاقيّ، والقرار الخلقيّ والشجاعة والحقيقة والصراحة والمسؤوليّة والحريّة الفرديّة...

ج - وعندما يتحدّث البعض عن إعادة تأسيس الأخلاق، فهو يتطرّق، استنادًا إلى الفكر المعاصر الفلسفيّ، إلى تأسيس تربية أخلاقيّة. وإذا كان من الصعب القول إنّ على تربية جيل اليوم أن تتمّ وفق مقاييس الماضي أو كما تربّى الأقدمون، فإنّه من الضروريّ، لا بل من الواجب أن يقال لا بدّ من السير في عمليّة التربية قُدُمًا، عمليّة التربية الأخلاقيّة، وإلّا يكون الإنسان قد اعتبر نفسه مستقيلاً في هذا المضمار. فالإرادة التربويّة الأخلاقيّة هي شاملة ومن مقوّمات الهويّة الإنسانيّة إذ إنّها تبغي، وهذه وظيفتها، أنسنة الإنسان وهي بالتالي إرادة من أجل المستقبل ولا بدّ أن تستمرّ حيّة فاعلة.

د - إنّ تأسيس الأخلاق وحده يتيح لنا أن نتحدّث عن «نموّ خلقيّ» وأن نقبل بشيء هو من باب الرجاء ألا وهو أنّ للتاريخ معنًى واتّجاهاً أو توجّهاً من الجيّد إلى الأفضل. ألم تنتقل المجتمعات من قانون الانتقام والاستعباد والتعذيب من دون رادع والاقتصاص من دون وازع إلى وضع أفضل اليوم؟ هذا يعني أنّ هناك مبادئ أخلاقيّة وممارسات هي أفضل من غيرها. في هذا المجال لا بدّ من المراقبة والتمييز والمقاومة للوصول إلى ما هو أفضل ولا بدّ من القبول بأنّ هناك مبادئ لها صفة الإطلاق والشمول أكثر من غيرها. وهذا يعني، إذا ما أصبح ذلك المبدأ قاعدة شموليّة، أنّ النموّ ممكن وأنّ الجميع سيسعون إلى ما يجعل ذلك المبدأ واقعًا.

هـ - وأخيرًا، النظام الخُلُقيّ له وجهان في تأسيسه: الأساس السلبيّ هو الحرّيّة المطلقة، والأساس الإيجابيّ هو القانون. فمن هذا الباب، يسعى الفكر الغربيّ إلى التوازن بين الأوّل والثاني، وإلى المعارضة بينهما كمبدأين أساسيّين، لا يستطيع الفكر الأخلاقيّ الفعليّ أن يتخلّص من الواحد إذ يحافظ على الآخر. هنا تطرح الأسئلة الكثيرة: أين حدود الحرّيّة

وأين هي حدود القانون؟ كيف يحمي القانون الحرّيّة وكيف تحمي الحرّيّة القانون أكان وضعيًّا أم طبيعيًّا؟ ومَن له الحقّ في استنباط المقاييس التي تحمي الحرّيّة والنظام الأخلاقيّ؟

ويشدّد الفكر الفلسفيّ، على وجه العموم، على الحرّيّة كضرورة للأخلاق بمقدار ما أنّ إرادة الخير هي في الوقت عينه طلب الحرّيّة لنفسها ومطلبًا أخلاقيًّا. وإذا ما أردنا التعمّق في دعوة الحرّيّة، لرأينا أنّها تتضمّن الأخلاق كلّها، إذ إنّ الحرّيّة لا تستطيع أن تطلب لنفسها ما هو معادٍ للحرّيّة أو اللاحرّيّة. فالأخلاق، بعبارة أخرى، ليست أمرًا خارجيًّا أو هامشيًّا بالنسبة إلى الحرّيّة، بل هي الحامل لها.

إلّا أنّ إعادة تأسيس الأخلاق، وإن ارتبطت الأخلاق والقواعد والقوانين بالحرّيّة، يصطدم بعقبة كبيرة مردّها انفصام العرى، الذي سبّبته الحداثة، بين عقلانيّات ثلاث هي التالية:

- العقلانيّة التقنيّة الاقتصاديّة،
- العقلانيّة الأخلاقيّة،
- والعقلانيّة الجماليّة[٣].

فالعقلانيّة الاقتصاديّة هي غنيّة، قاسية، وهي لا تتلاءم دومًا مع قوانين العقلانيّة الأخلاقيّة، ولا شكّ أنّ الإنسان المعاصر، بوجه خاصّ، يعيش بعيدًا عن ذاته، عندما لا يستطيع دومًا أن يضع موضع الفعل قناعاته ومبادئه الوجدانيّة. أمّا العقلانيّة الجماليّة فهي تُعتبر أمرًا هامشيًّا لا يؤثّر على مصير الإنسان ووجوده. لا شكّ أنّ هذا الانفصام هو ضروريّ... من أجل الفاعليّة الموضوعيّة والنجاح الاجتماعيّ. إلّا أنّ هذا النجاح ولّد البلبلة وأصبحت العقلانيّة الأخلاقيّة وكأنّها أمر تراثيّ أو مجرّد لوحة من الماضي.

غير أنّ العالم اليوم، في وقت أخذت فيه الأزمات تتلاحق وتتمادى،

(٣) هذا التصوّر هو لعالم الاجتماع الألمانيّ المفكّر ماكس فيبر (١٨٦٤ - ١٩٢٠) وقد أكّدت هذا الانفصام أبحاث الفيلسوف الألمانيّ يورغن هابرماس.

وهي من كلّ نوع، عاد من خلال الفكر الأخلاقيّ إلى وضع العقلانيّة الأخلاقيّة في مركز الوسيط، لأنّ العقلانيّة التقنيّة مهدّدة بالسقوط من دون قواعد ضابطة فاعلة، والعقلانيّة الجماليّة مهدّدة بالفناء والتهميش إن لم تجد معنى لذاتها من خلال الخير الفرديّ والخير العامّ. هذا كلّه يؤكّد اليوم أهمّيّة مكانة الفكر الأخلاقيّ لا من خلال محتوى معيّن فقط، بل لأنّه سعي إلى الخير.

وعندما نتحدّث عن الحرّيّة والأخلاق كأساس للسعي إلى الخير، فهذا يعني، وهذا ما يتصوّره الفكر المعاصر أنّ الشرّ هو هنا في العالم. إنّه موجود. والفكر الفلسفيّ يسعى إلى تطوير العقلانيّة الأخلاقيّة الجامعة، التي تأخذ بعين الاعتبار وجود العقلانيّة التقنيّة الاقتصاديّة والعقلانيّة الجماليّة. وهو يسعى إلى ذلك بجدّيّة لأنّ الشرّ، وإن لم يتمّ الحكم بمصدره، هو من باب المقولة الذاتيّة أو التعيين المرتبط بالفرد المفكّر الناطق. ولذلك وجب على هذا الفرد أن يفكّر في كيفيّة تصوّر الخير من خلال الممارسة والفعل.

* * *

إنّ رسالة البابا تندرج في إطار تساؤلات الإنسان المعاصر حول وجهة الحياة ومعناها، وفي إطار ما يحاول الفكر المعاصر النظاميّ أن يتصوّره من قواعد ومبادئ للعقلانية الأخلاقيّة. ومن الطبيعيّ أن تتضمّن هذه الرسالة نوعاً من البلاغ والموقف الذي يؤسّس الأخلاق، لا على الانسان فقط، بل على ما يتعدّى الإنسان ويتجاوزه، إذ إنّ التجاوز والمطلق هما في الإنسان، إلّا أنّهما لا يتقيّدان بحدوده.